اخبار وافكار

زقاق الاربعين

طالعت في مجلة المجمع العلمي ما كتب في زقاق الاربعين في حلب ونسبته الى أربعين عيلة أتي بها الى حلب بأمر السلطان مراد الى غير ذلك من الآراء . وانا أرى ان فريقاً ممن يروي هذه القصة في حلب يسند هذا الامر الى السلطان سليم الاول الذي دخل حلب صلحاً بعد موقعة مرج دابق المشهورة سنة ١٥١٦ وفريق آخر يسنده الى السلطان مراد الرابع الذي دخل حلب سنة ١٦٣٩ بطريقه الى العراق لأخذ بغداد من شاه العجم . ومع ما في هذا الاختلاف من الدلالة على سخافة هذه القصة لا يوجد سند تاريخي يصح الاعتماد عليه باسناد هذا الامر الى احدهما . بل ان التاريخ الصحيح ينقضها :

فان ما كتبه عبد الله دلال سنة ١٨٣٨ في أصل تاريخ أسرته مسنداً هذا الأمر الى السلطان مراد لا يصح الاعتماد عليه لبعد هذا الكاتب عن زمان دخول السلطان المذكور الى حلب وما هو بالحقيقة الا ناقل لهذه الحكاية التي كانت شائعة في حلب على عهده وما على الناقل لها سبيل لتحقيقها .

فقد قال الشماس بولس الحلبي الذي كان مع والده مكاريوس مطران حلب في مقدمة النصارى الذين خرجوا لاستقبال السلطان في صفحة ٤٤ كتابه في سفرة والده المذكور الذي طبعنا منه نخبة :

« وفي السنة الرابعة من رياسته التي هي سنة ٧١٤٧ للعالم (١٦٣٩ مسيحية) وافى السلطان مراد مجيشاً من القسطنطينية الى حلب ودخلها يوم الخميس ١٢ تموز

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

راغباً في الذهاب الى مدينة بغداد لكي يحوز لها وخرجت جميع طوائف النصارى التقوه باصناف أثواب القماش الثمين ناشرين ذلك على حافة الطريق ومعهم الأب السيد المطران والكهنة وبقية المسيحيين مع أرباب الحرف والصنائع ممتدين من خان طومان الى نفس ساحة الميدان وكان يوماً مشهوداً يعدّ من الاعمار ويُذكر في الأجيال الآتية مدى الادهار وكانت السلطانة الافرنجية امرأته قد تقدمته بايام ثلاث معها يلوذ بها في القوجيات اي العربانات وأقام في حلب ستة عشر يوماً وما كانت الاّ كأنها رؤيا في المنام لان بقدومه قدم الخير الوفي وأخصب فيها كل شيء وصار طالع سعودها بوجوده ولم يعوزها شيء مع كثرة من صحبه من العساكر المشابهة بكثرتها القطر القاطر ... » .

ثم في كلام الشماس المذكور فيما تقدّم من كتابه المشار اليه عن المطارنة الذين جلسوا في حلب قبل والده ما يكفي للدلالة على وجود كثرة المسيحيين فيها من قبل وعلى عدم صحة هذه الحكاية باسناد هذا الأمر الى السلطان سليم .

ثم ان العقل السليم لا يسلم ان السلطان المذكور الداخل صلحاً الى حلب — بأول الفتح العثماني للشام — يكلف أهلها المسلمين بان يأتوا بعدد من النصارى الغرباء لينازعوهم فيها أسباب الرزق .

ومن المقرّر تاريخياً ان هذا السلطان كان أشد سلاطين آل عثمان تعصباً للاسلام ليستبد بامره فيه منفرداً بدون منازع بل قد تجاوز بهذا ما جبل عليه الطبع الانساني من الحب وحفظ حياة أهله وذويه الأقربين . ومعلوم ان هذا السلطان اغتال اعمامه واخوته وأولادهم جميعاً خشية ان يكون له منهم منازع او مزاحم على الملك . وكذلك — على ما يقال — دس السم لابيه السلطان بايزيد لانه كان يريد ان يعهد بالملك بعده لولده البكر أحمد شقيق سليم . وقد أوقع باربعين الفاً من أهل مملكته اغتيالاً ولم يكن لهم ذنب سوى كونهم من الشيعة . وما أشهر الحرب على الشاه اسماعيل الكبير الا لكون هذا أعلن نفسه انه حامي الشيعة ذون السنة في الاسلام .

وكان في عزم هذا السلطان ان يبيد من بلاد الروم كل المسيحيين لكن منعه بحكمته وزيره الذي أوعز الى بطريرك الروم القسطنطيني — بالاتفاق مع شيخ

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الاسلام — ان يحتج بعهد النبي العربي ومعاهدة الإمام عمر و براءة السلطان محمد الفاتح التي استشهد على صحتها بعض شيوخ الانكشارية الذين كانوا أحياء من ايام الفتح . والغاية كان السلطان سليم أبعد الناس طبعاً عن مثل هذا الامر . واذا صح بعدما تقدم بيانه انه لا يجوز ان نسلم بصحة هذه القصة وجب ان نبين سبب هذه التسمية فنقول :

بعد ان استولى السلطان سليم على مصر والشام والعراق وكل بلاد العرب والروم أخذ بعض حكومات اوربا يعقدون معه ومع خلفائه معاهدات تجارية وكانت حلب حينئذ الطريق الوحيد من البحر الى العراق وارمينية وبلاد العجم والهند وسائر الجهات الشرقية فتجدد حينئذ عمرانها بعد خرابها بجيوش تيمورلنك سنة ١٤٠٠ وصارت ذات تجارة واسعة لا تضاهيها مدينة في الشرق اذ أقبل عليها تجار الافرنج على اختلاف بلدانهم وممالكهم واتخذوا لهم فيها عمالاً من النصارى الشرقيين يعتمدون عليهم في تصريف بضاعتهم في حلب وسائر الجهات الشرقية وكثروا فيها جداً وكلهم يميلون الى التجارة والصناعة من الشام والعراق وأرمينية وغيرها وتألفت منهم طوائف كبيرة ذات شأن بعدد رجالها وغناها من الروم والأرمن والسريان والموارنة والكلدان ولكل طائفة مطران وكنيسة وكهنة ممتازين حتى صار بعض بطاركة الروم والارمن والسريان يؤثرون الإقامة فيها في القرن السابع عشر على دمشق وسواها وكان عدد الروم فيها يوازي عدد الذين هم في سائر البطركية الانطاكية في جميع مدن الشام والعراق .

ومعلوم ان المهاجرين اذا كثروا في مدينة اتخذوا لهم فيها بيوتاً في المحلة الخالية من السكان او الخراب حيث لا يجدون مزاحمة وبناء على هذا اتخذ المهاجرون الى حلب محلة زقاق الاربعين التي كانت خراباً وعمروها وسكنوا فيها ومن هنا تولدت قصة الاربعين عيلة .

وهذا الاسم قديم قبل السلطان سليم وهو منسوب لكنيسة قديمة كانت عامرة هناك على اسم الاربعين شهيداً الذين قتلوا جميعهم صبراً في مدينة سبسطية سنة ٣٢٠ وكذلك كان لهم او على اسمهم كنائس في بيروت وحمص وجوار دمشق قد استولى

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

عليها الخراب وزالت رسومها ولم يبق لها الا اسمها ملازماً لهذه المحلات مراعاة لحق الجوار ودليلاً على سابق عمرانها ولم يقم مقامها كنيسة جديدة الا في مدينة حمص فانها تجددت في محل الكنيسة القديمة الكنيسة الكاتدرائية الحالية للروم وهي مشهورة بسعتها وجمالها . ومن يعلم عظم الاكرام الذي حازه هؤلاء القديسون في الشرق عند جميع المسيحيين على اختلاف مذاهبهم وطقوسهم ورغبة الشرقيين في إقامة الكنائس الكثيرة على اسماء القديسين لا يتردد في هذا الحكم . وفوق كل ذي علم عليم .

الخوري قسطنطين الباشا

═══